Scholar's Digest- Journal of Multidisciplinary Studies
Volume 4, Issue 7, July 2025
ISSN (E): 2949-8856
Scholarsdigest.org

THE SCIENTIFIC INTERPRETATION OF THE HOLY QURAN: BETWEEN ACCEPTANCE AND REJECTION - A CRITICAL STUDY

Firas Muslm Salim Al-Zubadi
The General Directorate for Education of Diyala- Iraq
firas.m.zubaidi@gmail.com

Abstract
This research provides a critical study of the "scientific interpretation of the Holy Quran," examining the debate between two primary trends: the proponent trend, which views it as proof of divine miraculousness and an effective missionary tool in the age of science, and the opposing trend, which warns of its methodological dangers, such as overburdening the text, linking the absolute to the relative, and contradicting the primary purpose of guidance (hidayah).
The research concludes that the core issue is not the existence of cosmic allusions in the Quran, but the absence of a disciplined methodology for dealing with them. Therefore, the study proposes a balanced, moderate solution based on five fundamental guidelines: respecting linguistic and contextual meaning, decisively distinguishing between scientific fact and theory, avoiding definitive language, subordinating to the higher purpose of guidance, and considering the Quran a catalyst for science, not a substitute for it. These guidelines aim to preserve the sanctity of the text while remaining open to contemporary contemplation, ensuring the cosmic verses remain a motivator for both science and faith.

Keywords: Scientific Exegesis, Scientific Miracles (I'jaz), Quranic Sciences, Tafsir Methodology, Quran and Science, Interpretation Controls.

Introduction

التفسير العلمي للقرآن الكريم بين القبول والرفض: دراسة نقدية

فراس مسلم سالم الزبيدي

المديرية العامة لتربية ديالى- العراق

firas.m.zubaidi@gmail.com

الخلاصة

يتناول هذا البحث بالدراسة النقدية إشكالية "التفسير العلمي للقرآن الكريم"، مستعرضاً الجدل القائم بين اتجاهين رئيسيين: الاتجاه المؤيد الذي يرى فيه دليلاً على الإعجاز الإلهي وأداة دعوية فعالة في عصر العلم، والاتجاه الرافض الذي يحذر من مخاطره المنهجية، كتحميل النص ما لا يحتمل وربط المطلق بالنسبي ومخالفة مقصد الهداية.

يخلص البحث إلى أن المشكلة لا تكمن في وجود إشارات كونية في القرآن، بل في غياب منهجية منضبطة للتعامل معها. ولذلك، يقترح البحث حلاً وسطياً متوازناً يقوم على خمسة ضوابط أساسية: احترام دلالة اللغة والسياق، التمييز القاطع بين الحقيقة العلمية والنظرية، تجنب لغة الجزم والقطع، الخضوع لمقصد الهداية الأعلى، واعتبار القرآن محفزاً للعلم لا بديلاً عنه. وتهدف هذه الضوابط إلى صيانة قدسية النص مع الانفتاح على التدبر المعاصر، لتبقى آيات الكون دافعاً للعلم والإيمان معاً.

الكلمات المفتاحية: التفسير العلمي، الإعجاز العلمي، علوم القرآن، ضوابط التفسير، القرآن والعلم، منهجية التفسير.

المقدمة

في خضم المناخ الفكري للعصر الحديث، الذي اتسم بالصعود المبهر للعلم التجريبي وهيمنته على تفسير الظواهر الكونية، نشأ تحدٍ كبير للفكر الديني بشكل عام. وفي العالم الإسلامي، اتخذ هذا التحدي شكل لقاء حضاري عميق بين الموروث الإسلامي ومنجزات الحضارة الغربية المادية. من رحم هذا اللقاء، وبدافع من الرغبة في إثبات صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان، وتقديم حصانة فكرية للمسلمين أمام التيارات المادية، برز اتجاه تفسيري جديد عُرف بـ "التفسير العلمي للقرآن الكريم". لقد سعى رواد هذا الاتجاه إلى إيجاد روابط وثيقة بين الآيات القرآنية، خاصة تلك المتعلقة بالكون والطبيعة والإنسان، وبين أحدث ما توصلت إليه الاكتشافات العلمية، معتبرين ذلك دليلاً ساطعاً على المصدر الإلهي للقرآن. وهكذا، يمكن القول إن هذا اللون من التفسير جاء "استجابة لتحديات العصر العلمية" [1]، ليس فقط كجهد توفيقي، بل كأداة دعوية تهدف إلى إظهار الإعجاز العلمي في كتاب الله.

إشكالية البحث وأسئلته

تكمن إشكالية البحث في حالة الاستقطاب الحاد التي نتجت عن هذا الاتجاه؛ حيث انقسم المهتمون به إلى فريقين رئيسيين: الأول يمثل تيار الإفراط الذي توسع في ربط كل نظرية علمية بالقرآن، وهو ما يوقع أصحابه في "تكلف، يجعل صاحبه يخرج بالقرآن عن هدفه الأساسي" [2]. وفي المقابل، ظهر طرف آخر يمثل تيار الرفض التام خوفاً على قدسية النص. وأمام هذا التجاذب، تبرز الحاجة لدراسة نقدية للإجابة عن **سؤال البحث الرئيسي**: **كيف يمكن تقييم اتجاه التفسير العلمي**

بموضوعية، وما هي الضوابط المنهجية الضرورية للتعامل مع الإشارات الكونية في القرآن الكريم؟

أهمية البحث

تنبع أهمية هذا البحث من جانبين متكاملين؛ **أهمية علمية نظرية** تتمثل في الإسهام في إثراء المكتبة القرآنية بدراسة نقدية تضبط منهجية التعامل مع موضوع معاصر وشائك، و**أهمية عملية تطبيقية** تهدف إلى ترشيد الخطاب الإسلامي المعاصر حول هذا الموضوع، وتقديم رؤية متوازنة للباحثين والشباب المسلم على حد سواء.

منهج البحث

للإجابة عن سؤال البحث وتحقيق أهدافه، سيتم اتباع منهج بحثي يجمع بين **المنهج الوصفي التحليلي**، الذي سيُعنى بعرض آراء فريقي المؤيدين والرافضين وحجج كل منهما بأمانة، و**المنهج النقدي**، الذي سيتولى تقويم هذه الآراء ومناقشتها في ضوء قواعد وأصول التفسير المقررة، والتي تؤكد على أن "القرآن كتاب هداية، وهذه وظيفته الأولى التي نزل من أجلها" [3].

المبحث الأول: اتجاه المؤيدين: الحجج والأسس

يُشكّل اتجاه التفسير العلمي للقرآن الكريم ظاهرة فكرية بارزة في ساحة الدراسات القرآنية المعاصرة، استقطبت اهتماماً واسعاً وأثارت جدلاً كبيراً في الوقت ذاته. وقد تبنى هذا الاتجاه ثلة من العلماء والمفكرين المسلمين، مدفوعين برؤية تهدف إلى إعادة وصل القرآن الكريم بعصره، وإبراز جوانب إعجازية جديدة تتناسب مع لغة العصر ومنطقه العلمي. يقوم هذا التيار على منظومة من الحجج والأسس التي يرى فيها سنداً لمشروعيته ومنطلقاً لأهميته، والتي تستدعي عرضاً مفصلاً لفهم أبعادها ودوافعها العميقة.

أولاً: مفهوم التفسير العلمي وتجلياته

قبل استعراض الأسس التي يرتكز عليها المؤيدون، يتوجب علينا تحرير مصطلح "التفسير العلمي" وتفكيكه. فالتفسير لغةً هو الكشف والبيان، واصطلاحاً هو "علم يُبحث فيه عن أحوال القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية" [4]. أما العلم فيطلق على المعرفة المنهجية القائمة على الملاحظة والتجربة. وعليه، فإن مصطلح "التفسير العلمي" يعني اصطلاحاً ذلك الجهد التأويلي الذي يهدف إلى "ربط الحقائق العلمية التي استقر عليها العلم التجريبي بالآيات القرآنية ذات الصلة بالمجالات الكونية، كالطب والفلك والجيولوجيا، لإظهار التوافق بينهما" [5].

غيـر أن هـذا المفهـوم العـام تتفـرع عنـه مصـطلحات أخـرى متداخلـة، يحـرص المتخصصون على التمييز بينها، وهي:

1. **التفسـير العلمـي:** وهـو المصـطلح الأوسـع، ويشـمل كـل محاولـة لشـرح الآيـات الكونيـة أو فهمهـا فـي ضـوء المعـارف العلميـة، سـواء كـان الهـدف مـن ذلـك إثبـات الإعجـاز أم مجرد التوسع في الفهم والتدبر.
2. **الإعجـاز العلمـي:** وهـو المصـطلح الأكثـر شـيوعاً وشـهرة، ويمثـل الجانـب الـدعوي والحجـاجي مـن التفسـير العلمـي. فالإعجـاز العلمـي هـو النتيجـة أو الادعـاء الـذي يخلـص إليـه المفسِّـر، ومفـاده أن القـرآن قـد سـبق العلـم الحـديث بقـرون فـي الإشـارة إلـى حقيقـة علمية دقيقـة لـم تكـن معروفـة للبشـر وقـت نزولـه، ممـا يثبـت مصـدره الإلهـي. فكـل إعجـاز علمـي هـو نتـاج تفسـير علمـي، ولكـن لـيس كـل تفسـير علمـي يصـل بالضـرورة إلـى مرتبـة الادعاء بالإعجاز.
3. **الإشـارات العلميـة:** وهـو مصـطلح أكثـر تحفظـاً، ويسـتخدمه بعـض البـاحثين لوصـف الآيـات التـي تلمِّـح إلـى ظـواهر كونيـة دون الجـزم بتطابقهـا الكامـل مـع نظريـة علميـة محـددة، ممـا يتـرك البـاب مفتوحـاً للفهـم والتـدبر دون الوقـوع فـي محـاذير ربـط الـنص المطلق بالمعرفة النسبية.

وعليـه، فـإن عمـل المؤيـدين يتركـز بشـكل كبيـر فـي دائـرة "الإعجـاز العلمـي"، باعتباره الغاية الأسمى من هذا اللون من التفسير.

ثانياً: المبررات والأسس المنهجية للمؤيدين

يسـتند خطـاب المؤيـدين للتفسـير العلمـي إلـى مجموعـة متكاملـة مـن المبـررات والحجج، يمكن تفصيل أبرزها في النقاط التالية:

1. شمولية القرآن ودعوته الصريحة للنظر في الكون:

يُعَـدُّ هـذا المبـرر هـو المنطلـق التأسيسـي لهـذا الاتجـاه برمتـه. ينطلـق المؤيـدون مـن رؤيـة تـرى القـرآن كتابـاً شـاملاً وكـاملاً، لـم يفـرط فـي شـيء مـن أمـور الـدين والـدنيا، ويسـتدلون علـى ذلـك بعمـوم قولـه تعـالى: ﴿**وَنَزَّلْنَـا عَلَيْـكَ الْكِتَـابَ تِبْيَانًـا لِّكُـلِّ شَـيْءٍ وَهُـدًى وَرَحْمَـةً وَبُشْـرَىٰ لِلْمُسْـلِمِينَ**﴾ [النحـل: 89]. وفـي حـين يـرى المفسـرون القـدامى أن "كـل شـيء" هنـا مقصـورة علـى مـا يحتاجـه النـاس مـن أمـور دينـهم وهـدايتهم [6]، فـإن رواد التفسـير العلمـي الحـديث يوسـعون دلالـة اللفـظ لتشـمل أصـول العلـوم الكونيـة كافـة. ويُعـد الإمـام طنطـاوي جـوهري (ت. 1940م) فـي تفسيره "الجـواهر فـي تفسـير القـرآن الكـريم" المثـال الأبـرز علـى هـذا التوسـع، حيـث اعتبـر أن إهمـال المسـلمين للعلـوم الكونيـة التـي أشـار إليهـا القـرآن هـو سـبب تخلفهـم، وأن الآية السابقة هي أصل في هذا الباب [7].

إلـى جانـب دليـل الشـمولية، يسـتندون إلـى عشـرات الآيـات التـي تحـث بشـكل مباشـر وصـريح علـى "النظـر"، و"التفكـر"، و"التـدبر" فـي خلـق السـماوات والأرض، وفـي

الأنفس، وفي الظواهر الطبيعية. وتأتي الآية الكريمة: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾ [فصلت: 53]، لتكون بمثابة وعد إلهي ونبوءة قرآنية يرون أنها تتحقق اليوم من خلال الاكتشافات العلمية. فالعلم التجريبي، في منظورهم، هو الوسيلة التي تكشف للبشرية المعاصرة عن صدق "آيات الآفاق" (في علم الفلك والجيولوجيا) و"آيات الأنفس" (في علم الطب والأجنة)، مما يجعله خادماً للقرآن ومُظهِراً لحقائقه [8].

2. ضرورات العصر ومتطلبات الدعوة:

ينظر أنصار هذا الاتجاه إلى التفسير العلمي ليس كخيار فكري، بل كضرورة دعوية ومنهجية يفرضها واقع العصر. ويمكن تفصيل هذا المبرر في بعدين:

- **البعد الدفاعي (الأبولوجي):** نشأ هذا الاتجاه في سياق تاريخي تعرض فيه الإسلام والمسلمون لهجمة فكرية شرسة من قبل بعض المستشرقين والتيارات المادية التي وصمت الإسلام بالرجعية والتخلف ومعاداة العلم. فجاء التفسير العلمي كرد فعل دفاعي، يهدف إلى إثبات أن الإسلام ليس معادياً للعلم، بل إن كتابه المقدس هو مصدر العلم ومنبعه، مما يعيد الثقة للمسلم في دينه وتراثه.
- **البعد الهجومي (الدعوي):** يرى المؤيدون أن لغة العلم هي "لغة العصر" التي يفهمها الجميع، وهي لغة عالمية تتجاوز الحدود الثقافية واللغوية. ولذلك، فإن مخاطبة العقل الغربي أو الشاب المسلم المتشبع بالثقافة العلمية تتطلب تقديم أدلة مادية ملموسة. وهنا، يصبح تقديم حقيقة علمية دقيقة، أشار إليها القرآن قبل 1400 عام، "أقوى حجة وأمضى برهان" [9] على صدق الإسلام. فهو ينقل الدعوة من مستوى الجدل اللاهوتي النظري إلى مستوى الإثبات المادي التجريبي، وهو ما يراهنون على فعاليته في إقناع غير المسلمين وتقوية يقين المسلمين.

3. إثبات المصدر الإلهي للقرآن كمعجزة خالدة:

تمثل هذه النقطة ذروة الطرح الذي يقدمه المؤيدون، والغاية النهائية التي تهدف إليها جهودهم. ففكرة "الإعجاز العلمي" تقوم على بناء حجة عقلية قوية، يمكن صياغتها بالآتي:

أ. القرآن الكريم، الذي نزل في القرن السابع الميلادي، يصف بدقة ظواهر كونية أو بيولوجية معقدة (مثل مراحل تطور الجنين، أو توسع الكون، أو الحاجز بين البحار).

ب. هذه الحقائق العلمية الدقيقة كانت مجهولة تماماً للبشرية جمعاء في ذلك الوقت، ولم يتم اكتشافها إلا في القرون الأخيرة بواسطة أجهزة وتقنيات متطورة.

ج. النبي محمد ﷺ كان رجلاً أمياً، نشأ في بيئة صحراوية بدائية، ولم يكن من الممكن له أو لأي إنسان في عصره أن يحيط علماً بهذه التفاصيل.

د. النتيجة المنطقية: بما أن هذه المعرفة تتجاوز القدرة البشرية في ذلك العصر، فلا بد أن يكون مصدرها هو الله الخالق العليم.

يقول الطبيب الفرنسي موريس بوكاي، الذي كان لكتابه "التوراة والإنجيل والقرآن والعلم" صدى واسع، مؤكداً على هذه النقطة: **"إن مجرد وجود هذه البيانات العلمية في القرآن التي لم تكن معروفة في عصر محمد، ليدهش حقاً... إن التوافق التام بين القرآن والعلم هو بالنسبة إلينا دليل ذو قيمة، وهو برهان على أصالة القرآن"** [10].

وبهذا، يرى المؤيدون أن الإعجاز العلمي هو المعجزة الحية والمتجددة للقرآن الكريم في عصرنا، فكما كانت معجزته للعرب في زمنه هي بلاغته وبيانه الذي تحدى فصاحتهم، فإن معجزته لأهل عصر العلم هي إشاراته العلمية التي تتحدى معارفهم وتثبت أنها من عند من خلق الكون ويعلم أسراره.

ثانياً: نموذج تطبيقي وتحليله: مراحل خلق الجنين

يعتبر أنصار التفسير العلمي الآيات التي تصف مراحل خلق الإنسان في رحم الأم من أقوى وأوضح الأدلة على الإعجاز العلمي في القرآن الكريم. وتُعد الآيات 12-14 من سورة "المؤمنون" هي النص المحوري في هذا الباب، حيث يرون أنها تقدم وصفاً دقيقاً وموجزاً ومطابقاً لما كشفه علم الأجنة الحديث (Embryology) بعد قرون طويلة من نزول القرآن. وقد زادت من قوة هذا النموذج في الخطاب المعاصر استعانة بعض كبار علماء الإعجاز بشهادات خبراء غربيين في علم الأجنة، أبرزهم البروفيسور الكندي كيث مور (Keith L. Moore)، الذي أُبهر بدقة الوصف القرآني وأدرج بعضه في طبعات من كتابه الأكاديمي المرجعي *The Developing Human*.[11]

يقول الله تعالى في سورة المؤمنون:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ (12) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (13) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (14)﴾

ويقوم المؤيدون بتحليل هذه الآيات مرحلة بمرحلة لإبراز "وجه المطابقة" الدقيق بين المصطلح القرآني والحقيقة العلمية على النحو التالي:

1. مرحلة النطفة في القرار المكين:

- **المصطلح القرآني:** "نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ".
- **التحليل اللغوي:** كلمة "نطفة" في اللغة العربية تعني القطرة الصغيرة من أي سائل. و"القرار المكين" يعني المكان الآمن والمستقر والمُهيَّأ.

- **المطابقة العلمية:** يرى المؤيدون أن هذا الوصف ينطبق بدقة متناهية على المراحل الأولى للتكوين. فمن بين ملايين الحيوانات المنوية (التي تسبح في سائل)، ينجح حيوان منوي واحد في تلقيح البويضة، لتتكون "النطفة الأمشاج" (الزيجوت)، وهي كيان مجهري يمثل "قطرة" الحياة الأولى. ثم تنغرس هذه النطفة في جدار الرحم، الذي يصفه القرآن بـ "القرار المكين". ويعتبرون هذا الوصف العلمي للرحم في غاية الدقة؛ فالرحم بجدرانه العضلية السميكة وموقعه المحمي داخل حوض الأم، يوفر بالفعل بيئة آمنة ومستقرة ومكينة لنمو الجنين لمدة تسعة أشهر [12].

2. مرحلة العلقة:

- **المصطلح القرآني:** "ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً".
- **التحليل اللغوي:** هذه هي المرحلة التي يراها المؤيدون الأكثر إبهاراً. فكلمة "علقة" المشتقة من الجذر (ع-ل-ق) تحمل في اللغة العربية ثلاثة معانٍ متزامنة:

1. **دودة العَلَق:** وهي دودة مائية معروفة تعيش في البرك وتمتص دماء الكائنات الحية.
2. **الشيء المعلَّق.**
3. **الدم المتجمد أو المتخثر**

- **المطابقة العلمية:** يرى أنصار الإعجاز أن الجنين في هذه المرحلة (الأسبوع الثالث تقريباً) يطابق هذه المعاني الثلاثة بشكل مذهل:

1. **من حيث الشكل والوظيفة (دودة العلق):** يكون شكل الجنين في هذه المرحلة مسطحاً ومستطيلاً، ويشبه تماماً شكل دودة العلق. والأكثر من ذلك، أنه يتعلق ويتشبث بجدار الرحم ويمتص الدماء من الأم عبر الأوعية الدموية البدائية، تماماً كما تفعل دودة العلق. ويقدمون صوراً مجهرية للجنين بجانب صور للدودة لإظهار التطابق الشكلي والوظيفي [13].
2. **من حيث الحالة (الشيء المعلق):** يكون الجنين في هذه الفترة معلّقاً فعلياً في التجويف المشيمي داخل الرحم، لا يلامس جدرانه إلا من خلال ساق يتطور لاحقاً إلى الحبل السري.
3. **من حيث المظهر (الدم المتجمد):** في هذه المرحلة، يكون الدم محبوساً في أوعية دموية مقفلة ولا يبدأ بالدوران، مما يعطي الجنين مظهر قطعة دم جامدة، خاصة مع تشكل القلب وبدء تكون الدورة الدموية المغلقة [14].

ويخلصون إلى أن كلمة **"علقة"** هي المصطلح الوحيد الذي يمكن أن يجمع هذه الأوصاف الثلاثة الدقيقة (الشكل، والوظيفة، والحالة، والمظهر) في آن واحد، وهو ما يستحيل على أي وصف بشري في ذلك الزمان.

3. مرحلة المضغة:

- **المصطلح القرآني:** "فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً".
- **التحليل اللغوي:** "المضغة" هي قطعة صغيرة من اللحم قدر ما يُمضغ، وتوحي الكلمة بوجود علامات أسنان عليها.
- **المطابقة العلمية:** في هذه المرحلة (الأسبوع الرابع)، يبدأ الجنين في أخذ شكل مختلف تماماً، حيث تتكون على ظهره كُتل بدنية تسمى "الفلقات أو الجسيدات" (Somites). هذه الفلقات تكون متتالية ومرتبة، وتعطي الجنين مظهراً يشبه تماماً مادة عليها طبعات أسنان أو لبانة ممضوغة. وقد أكد البروفيسور كيث مور هذا التشابه بعد اطلاعه على صور مجهرية للجنين، وصرح بأن هذا الوصف القرآني دقيق للغاية [15].

4. مرحلة تكون العظام وكسوتها باللحم:

- **المصطلح القرآني:** "فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا".
- **التحليل اللغوي:** يركز المؤيدون هنا على الترتيب الزمني الدقيق الذي قدمته الآية باستخدام حرف العطف "الفاء" الذي يفيد الترتيب والتعقيب (عظاماً أولاً، ثم كسوتها باللحم).
- **المطابقة العلمية:** يؤكد علم الأجنة الحديث هذا الترتيب بدقة. ففي نهاية مرحلة المضغة (حوالي الأسبوع السادس)، تبدأ خلايا الهيكل الغضروفي (الذي سيتحول إلى عظام) في التكون أولاً لتشكيل هيكل الجسم الأولي. ثم بعد أن يأخذ الهيكل العظمي شكله الأساسي، تبدأ كتل الخلايا العضلية (اللحم) في التكون حول هذه العظام وتتخذ أماكنها النهائية، لتكسوها وتغلفها. إن هذا الترتيب (الهيكل أولاً، ثم التفاف العضلات حوله) لم يكن من الممكن ملاحظته بالعين المجردة إطلاقاً، ويقول المؤيدون إنه يمثل سبقاً قرآنياً حاسماً [16].

5. مرحلة النشأة الأخرى:

- **المصطلح القرآني:** "ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ".
- **التحليل اللغوي:** استخدام "ثم" يفيد التراخي والتباعد الزمني، وعبارة "خلقاً آخر" توحي بحدوث تحول جوهري ونوعي في طبيعة المخلوق.
- **المطابقة العلمية:** يربط المؤيدون هذه المرحلة بالانتقال من الطور "المضغي" (Embryonic period) إلى الطور "الحميلي" (Fetal period)، أي حوالي نهاية الأسبوع الثامن. في هذه الفترة، تحدث تغيرات سريعة وكبيرة، حيث تكتمل معظم الأجهزة الأساسية، ويأخذ الجنين صورته البشرية الواضحة التي يمكن تمييزها.

ويرى بعضهم أن هذا التحول النوعي قد يشير أيضاً إلى مرحلة "نفخ الروح"، وهي حدث غيبي ينقل الجنين من كونه مجرد جسد حي إلى كائن إنساني متكامل [17].

وبهذا يخلص المؤيدون إلى أن الآيات تقدم خارطة طريق دقيقة وموجزة لمراحل التخلق البشري، تتطابق بشكل مذهل مع ما كشفه العلم الحديث، مما يشكل دليلاً قاطعاً، في نظرهم، على أن مصدر هذه المعرفة لا يمكن أن يكون بشرياً، بل هو الله **"أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ"**.

المبحث الثاني: اتجاه الرافضين: الحجج والانتقادات

في مقابل التيار المؤيد للتفسير العلمي والمتحمس له، يقف تيار آخر من كبار العلماء والباحثين المتخصصين في علوم القرآن والتفسير، لا ليُعادي العلم أو يرفض منجزاته، بل انطلاقاً من حرص شديد على صيانة قدسية النص القرآني، وحماية أصول التفسير وقواعده الراسخة من التجاوز والتكلف. ويرى هذا الفريق أن في التوسع غير المنضبط في التفسير العلمي مخاطر منهجية وعقدية جسيمة، تفوق بكثير الفوائد الدعوية المرجوة منه. وتقوم اعتراضاتهم على مجموعة من الحجج النقدية التي تستهدف أسس هذا الاتجاه ومنطلقاته.

أولاً: أبرز الاعتراضات المنهجية

تتركز انتقادات هذا الفريق بشكل أساسي على الخلل المنهجي الذي يرونه في مقاربة المؤيدين للنص القرآني، ويمكن تفصيل أبرز هذه الاعتراضات في النقاط التالية:

1. خطورة تحميل النص ما لا يحتمل (التحريف المعنوي):

يُعَدُّ هذا الاعتراض هو حجر الزاوية في النقد الموجه للتفسير العلمي. يرى الرافضون أن الكثير من ممارسات هذا الاتجاه تقع في دائرة "التكلف" المنهي عنه، وهو محاولة إيجاد معانٍ بعيدة أو مستغربة لا يدل عليها اللفظ دلالة واضحة. وقد يصل هذا التكلف إلى درجة "التحريف المعنوي"، أي صرف اللفظ عن معناه الظاهر المتبادر إلى الذهن في لغة العرب، إلى معنى آخر لا يحتمله السياق، لمجرد موافقة نظرية علمية معاصرة [18].

يؤكد هذا الفريق على مبدأ أصيل في علوم القرآن، وهو أن القرآن "نزل بلسان عربي مبين"، وفهمه يجب أن ينطلق أولاً وقبل كل شيء من دلالات الألفاظ في لغة العرب وقت النزول، ومن سياق الآيات وبنية السورة. أما المفسِّر العلمي، في نظرهم، فإنه غالباً ما يعكس المعادلة؛ فهو يبدأ من حقيقة علمية مقررة في ذهنه، ثم يذهب إلى القرآن باحثاً عن آية يمكن "تطويعها" لتتفق مع تلك الحقيقة، وهذا منهج معكوس يفرض فيه المفسِّر رأيه المسبق على النص، ويجعل القرآن تابعاً للعلم لا متبوعاً. وفي هذا الصدد، يقول الإمام أمين الخولي، أحد أبرز نقاد هذا المنهج في العصر الحديث، بضرورة "أن تُدرس الآية في سورتها، وتُدرس السورة في قرآنها كله، وعندئذٍ قد يظهر من لون التعبير وجرس الألفاظ ما يعين

على تحديد المعنى" [19]، وهو ما يتجاوزه المفسر العلمي الذي يعزل الآية عن سياقها اللغوي والقرآني.

فالقرآن، في منظورهم، يجب أن يكون هو الحاكم والمُهيمن على كل معرفة بشرية، لا أن يكون محكوماً عليه بنظريات العلم التي تستخدم كمفتاح خارجي لفك "شيفرة" النص. وهذا المنهج، بحسب الدكتور مساعد الطيار، "يجعل من القرآن كتاب ألغاز، وهذا ليس من صفاته، بل هو كتاب بيان وهداية" [20].

2. إشكالية ربط النص المطلق بالمعرفة النسبية المتغيرة:

يقوم هذا الاعتراض على التمييز الجوهري بين طبيعة النص القرآني وطبيعة العلم التجريبي. فالنص القرآني يتميز بأنه "مطلق" و"ثابت" و"يقيني المصدر" لأنه وحي من الله، وحقائقه نهائية وخالدة. في المقابل، يتميز العلم التجريبي بأنه "نسبي" و"متغير" و"إنساني المصدر"، يقوم على نظريات وفرضيات تخضع باستمرار للتعديل والنقض والإبطال. فأعظم النظريات العلمية اليوم قد تصبح تاريخاً منسياً غداً.

ومن هنا تبرز الخطورة الكبرى، فإذا قام المفسِّر بربط آية قرآنية ربطاً قاطعاً وحاسماً بنظرية علمية معينة (كنظرية الانفجار العظيم مثلاً)، ثم جاء التطور العلمي وأثبت خطأ هذه النظرية أو استبدلها بنظرية أخرى، فماذا سيكون مصير الآية؟ سيجد المفسِّر نفسه أمام خيارين أحلاهما مر: إما أن يتراجع ويقر بخطئه، وهذا يضعف الثقة في التفسير برمته، وإما أن يظل متشبثاً بتفسيره، مما يضع القرآن نفسه في موضع التكذيب في نظر المخالفين. يقول الدكتور يوسف القرضاوي في هذا السياق محذراً: "لا ينبغي أن نربط القرآن بالفرضيات والنظريات العلمية التي لا تزال في دور التكوين... فإن العلم اليوم قد يثبت شيئاً، ثم ينقضه غداً، والقرآن حقائقه ثابتة لا تتغير" [21].

لقد شهد التاريخ محاولات فاشلة من هذا القبيل، كمن حاولوا تفسير السماوات السبع في القرآن على أساس نموذج بطليموس الفلكي الذي ساد لقرون ثم ثبت بطلانه، مما يوضح أن جعل القرآن رهينة لنظريات العلم المتقلبة هو مسلك محفوف بالمخاطر، وقد يضر بالقرآن أكثر مما يخدمه.

3. مخالفة المقصد الأعلى للقرآن (الهداية والإرشاد):

يُعَدُّ هذا النقد هو الأكثر عمقاً، لأنه يتعلق بالغاية الكبرى من إنزال القرآن الكريم، أو ما يُعرف بـ "مقاصد القرآن". يؤكد هذا الفريق أن المقصد الأسمى والأساسي الذي تدور حوله كل آيات القرآن هو "الهداية"؛ هداية الإنسان إلى خالقه، وإلى الطريق القويم في عبادته ومعاملاته وأخلاقه، وإلى تحقيق السعادة في الدنيا والآخرة. أما الآيات الكونية التي تتحدث عن الشمس والقمر والنجوم والجبال والأجنة، فلم تأتِ لتقدم دروساً تفصيلية في علم الفلك أو الجيولوجيا أو الطب.

إن وظيفة هذه الآيات، كما يوضح الإمام الشاطبي في "الموافقات"، هي لفت نظر الإنسان إلى عظمة الخالق وقدرته وحكمته من خلال التأمل في بديع مخلوقاته،

لتكـون بـذلك دلـيلاً علـى وحدانيتـه واسـتحقاقه للعبـادة، وبالتـالي فهـي تخـدم مقصـد الهدايـة الأسـمى [22]. فالخطـاب القرآنـي فـي هـذه الآيـات هـو خطـاب "عبـرة واسـتدلال" ولـيس خطـاب "معلومـة علميـة". إنـه يخاطـب فطـرة الإنسـان وعقلـه، سـواء كـان بـدوياً فـي القـرن السـابع أو عـالم فيزيـاء فـي القـرن الحـادي والعشـرين، ليدفعه إلى الإيمان.

لـذلك، يـرى النقـاد أن الانشـغال باسـتخراج النظريـات العلميـة مـن هـذه الآيـات هـو انحـراف عـن مقصـدها الأصـلي، وتحويـل للقـرآن مـن كتـاب هدايـة إلهـي إلـى موسـوعة علميـة بشـرية. يقـول الـدكتور محمـد حسـين الـذهبي فـي نقـده الـلاذع لهـذا الاتجـاه: "لـيس مـن وظيفـة القـرآن أن يقـرر لنـا النظريـات العلميـة... وإنمـا وظيفتـه الأولـى هـي الهدايـة الدينيـة التـي تصـل بالنـاس إلـى سـعادتهم... فمـن الخطـأ البـيّن أن نحـوّل القـرآن عـن وظيفتـه هـذه، وأن نلـتمس فيـه ألـوان العلـوم التـي لا تمـت إلـى الـدين بسـبب" [23]. فـالتركيز علـى الإعجـاز العلمـي، فـي نظـرهم، قـد يلهـي المسـلمين عـن التـدبر الحقيقـي في رسالة القرآن التشريعية والأخلاقية والروحية، وهي جوهر الدين وأساسه.

ثانياً: نقد النموذج التطبيقي (مراحل خلق الجنين)

كمـا أن آيـات سـورة المؤمنـون تُعـدُّ المعقـل الأبـرز لأنصـار الإعجـاز العلمـي، فإنهـا فـي الوقـت ذاتـه تمثـل سـاحة رئيسـية يطبـق عليهـا الفريـق الناقـد اعتراضـاته المنهجيـة، ليُظهـر كيـف أن المبالغـة فـي الـربط بـين الـنص والعلـم قـد تـؤدي إلـى الخـروج عـن دلالات اللغـة ومقاصـد القـرآن. لا يهـدف النقـاد مـن ذلـك إلـى إنكـار عظمـة الآيـات، بـل إلـى إعـادة توجيـه النظـر إلـى الوجـه الحقيقـي لإعجازهـا، والـذي يرونـه أسـمى وأبقـى من التطابقات العلمية الظرفية.

وتتركز رؤيتهم النقدية للنموذج التطبيقي في المحاور التالية:

1. مفهومية الألفاظ في سياقها اللغوي والتاريخي:

يؤكـد النقـاد علـى أن الألفـاظ القرآنيـة "نطفـة، علقـة، مضـغة" لـم تكـن طلاسـم غامضـة أو شـيفرات علميـة تنتظـر مجهـر القـرن العشـرين ليفـك أسـرارها، بـل كانـت كلمـات مفهومـة وواضـحة للعربـي فـي القـرن السـابع الميلادي، ولهـا دلالات مسـتقرة فـي لغتـه وبيئته المعرفية.

- **حـول مصـطلح "العلقـة":** يـرى النقـاد أن التوسـع فـي اشـتقاق ثلاثـة معـانٍ (ليّنـة، معلـق، دم متجمـد) ومحاولـة مطابقتهـا جميعـاً علـى الجنـين هـو مثـال صـارخ علـى التكلـف. إن المعنـى المتبـادر إلـى الـذهن والأكثـر شـيوعاً وثباتـاً فـي المعـاجم العربيـة القديمـة لكلمـة "علقـة" هـو "الـدم الغلـيظ المتجمـد" أو "قطعـة الـدم" [24]. أمـا تشـبيهها بـ "دودة العلـق" فهـو تشـبيه بعيـد، لـم يكـن ليخطـر علـى بـال المخاطـب الأول. الأكثـر مـن ذلـك، أن الفكـرة القائلـة بـأن الجنـين يتكـون مـن دم الأم المتجمـد فـي الـرحم كانـت فكـرة طبيـة قديمـة ومعروفـة لـدى الأطبـاء اليونـانيين (مثـل جـالينوس وأبقـراط) والهنـود قبـل الإسـلام بقـرون. فـالقرآن، فـي نظـرهم، لـم يـأتِ ليقـرر هـذه النظريـة الطبيـة القديمـة، بـل اسـتخدم

المصطلح المألوف "علقة" في سياق فريد لبيان قدرة الله على تحويل هذه الكتلة الدموية الصمّاء إلى خلق سويّ [25].

- **حول مصطلح "المضغة":** كذلك، فإن المعنى المباشر لكلمة "مضغة" هو "قطعة من اللحم صغيرة قدر ما يُمضغ". فالكلمة تصف حجم الجنين ومادته في هذه المرحلة، وهو وصف بسيط ومفهوم. أما القول بأن الفلقات الجنينية (Somites) تشبه "آثار الأسنان"، فهو تفسير يقوم على الخيال البصري المستحدث بالصور المجهرية، ولا تحتمله دلالة الكلمة الأصلية، التي لم تكن تعني "مادة عليها آثار أسنان" بل "مادة بحجم ما يمكن مضغه".

فاللغة القرآنية، في رأيهم، استخدمت ألفاظاً من الواقع الحسي للمخاطبين لتقريب صورة عملية الخلق الغيبية، وليس لتقديم وصف كلينيكي دقيق.

2. التكلف في محاولة المطابقة الدقيقة:

يرى النقاد أن منهج المؤيدين يقوم على "ليّ عنق النص" (Forcing the text) ليتوافق مع العلم، وليس العكس. إن علم الأجنة الحديث يقدم عملية مستمرة ومتصلة، يصنفها العلماء إلى عشرات المراحل المتداخلة والمعقدة (بويضة مخصبة، تويتة، كيسة أريمية، تكون المعيدة، إلخ). أما القرآن، فقد قدم وصفاً موجزاً evocative وموحية. إن محاولة إسقاط الخارطة القرآنية البسيطة والهادفة على الخارطة العلمية المفصلة والمعقدة، وإيجاد تطابق دقيق بينهما، هو نوع من الإسقاط والتعسف الذي لم يقصده النص [26].

هذا المنهج، بحسب النقاد، انتقائي للغاية؛ فهو يركز على نقاط التشابه الظاهري ويتغافل عن نقاط الاختلاف. على سبيل المثال، يركز المؤيدون على الترتيب (عظاماً فكسونا العظام لحماً)، ولكنهم يتجاهلون أن تكون العضلات (اللحم) والأعصاب والأوعية الدموية يبدأ بالتوازي مع تكون الهيكل الغضروفي، فالعملية أكثر تداخلاً من التتابع البسيط الذي قد توحي به القراءة الحرفية لحرف "الفاء". إن هذا السعي المحموم لإثبات التطابق التام هو الذي يوقع في فخ "التكلف" المذموم.

3. إعجاز الآية الحقيقي: الإيجاز والمقصد:

بعد تفكيك دعوى المطابقة العلمية الدقيقة، يقدم النقاد فهماً بديلاً لعظمة الآيات وإعجازها، يرونه أليق بمكانة القرآن وأكثر اتساقاً مع مقاصده. فتكمن المعجزة الحقيقية في النقاط التالية:

- **الإعجاز في الإيجاز والترتيب:** إن قدرة القرآن على تلخيص عملية معقدة وغامضة كخلق الإنسان في بضع كلمات موجزة وبترتيب منطقي متصاعد (من الجماد "الطين"، إلى السائل "النطفة"، إلى الدم "العلقة"، إلى اللحم "المضغة"، إلى الهيكل

"العظام") هو بحد ذاته معجزة بيانية ولغوية. إنه يقدم للبشرية على اختلاف مستوياتها المعرفية صورة كلية واضحة عن رحلة الخلق، وهو ما لم تستطعه كل كتب الطب القديمة.

- **الإعجاز في المقصد التربوي والإيماني:** إن الهدف من هذه الآيات ليس تقديم درس في علم الأجنة، بل هو تربية الروح وربط الإنسان بأصله وتذكيره بقدرة خالقه. فالآيات تبدأ من أصل الإنسان الأول (الطين) ثم تصف أطواره الضعيفة (نطفة، علقة...) لتغرس في نفسه قيمة التواضع، ثم تختم بإعلان القدرة الإلهية المطلقة: ﴿**ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ**﴾. إن المقصد هو الوصول بالمستمع إلى هذه الخاتمة الإيمانية، وليس الوقوف عند التفاصيل البيولوجية [27].

فمعجزة الآية، في منظورهم النقدي، تكمن في قدرتها على مخاطبة كل العقول في كل العصور، فالأعرابي فهم منها قدرة الله، والطبيب اليوناني فهم منها ما يتناسب مع علمه، والعالم المعاصر يرى فيها إشارات تزيد من إيمانه، ولكنها في جوهرها تظل آية "هداية" لا آية "علم تجريبي".

المبحث الثالث: دراسة نقدية وضوابط مقترحة

بعد عرض وتحليل وجهتي النظر المؤيدة والرافضة للتفسير العلمي، تأتي هذه المرحلة من البحث لتجاوز مجرد الوصف إلى مستوى التقويم النقدي والموازنة الموضوعية. إن الهدف هنا ليس الانتصار لأحد الفريقين على الآخر، بل هو تفكيك حجج كل منهما، والإقرار بما فيها من صواب، وبيان ما شابها من غلو أو تضييق، وذلك في محاولة للوصول إلى رؤية وسطية متوازنة، ومنهجية منضبطة تليق بالتعامل مع كتاب الله العزيز.

أولاً: موازنة نقدية بين الاتجاهين

عند النظر بعمق في دوافع الفريقين، نجد أن كليهما ينطلق من أرضية مشتركة وهي "تعظيم القرآن الكريم" والغيرة عليه، ولكن هذه الغيرة أدت بكل فريق إلى سلوك طريق مختلف، يمكن وصفهما بأنهما طرفا نقيض.

فالفريق المؤيد، والمتحمس للإعجاز العلمي، ينطلق من "غيرة إيجابية" تهدف إلى إظهار قوة القرآن وعالميته في عصر العلم. دافعهم هو الدفاع عن الإسلام ضد من يتهمونه بالجمود، وتقديم دليل مادي محسوس للأجيال الجديدة التي قد لا تتأثر بالخطاب الإيماني التقليدي. إنهم يرون في العلم خادماً للقرآن، ووسيلة لإظهار كنوزه الخفية، وجهدهم في مجمله هو جهد دعوي apologetic يهدف إلى تعزيز الإيمان وتوسيع رقعته. لكن هذه الحماسة، ورغم نبل مقصدها، قد تدفع أصحابها أحياناً إلى تجاوز الحدود المنهجية، وتبني "تأويل كريم" يمنح النص بسخاء معانٍ قد لا تكون هي مراده الأول، مما يوقعهم في التكلف.

على الجانب الآخر، يقف الفريق الناقد والرافض، مدفوعاً بـ"غيرة وقائية" تهدف إلى حماية قدسية النص القرآني من أن تمسها نسبية المعرفة البشرية وتقلباتها. هم

بمثابة حراس على "أصول التفسير" وقواعده، يخشون على ثبات النص المطلق من أن يصبح رهينة لنظريات العلم المتغيرة. دافعهم هو الحفاظ على هوية القرآن ككتاب هداية، ومنع تحويله إلى موسوعة علمية، وهو جهد "حفظ" يهدف إلى صيانة النص من أي تأويل دخيل. لكن هذا الحذر preservationist الشديد، على أهميته، قد يؤدي ببعض أصحابه إلى نوع من التضييق الذي يغلق الباب أمام أي تدبر جديد أو فهم متطور لآيات الكون، وقد يكرس فهماً يرى أن معاني القرآن قد استنفدت عند الأوائل [28].

وهكذا نجد أنفسنا أمام طرفين: طرف يميل إلى التوسع في التأويل حتى يكاد أن يخرج عن ضوابط اللغة، وطرف يميل إلى التحفظ حتى يكاد أن يجمد على الفهم التقليدي للآيات الكونية.

إن الإقرار بهذه الحقيقة يقودنا إلى نقطة جوهرية، وهي أن الإشكالية لا تكمن في النص القرآني نفسه، بل في "منهجية التعامل معه". فالقرآن الكريم، وبشهادة آياته البينات، ليس كتاباً صامتاً عن الكون وظواهره، بل هو حافل بالإشارات الكونية المبهرة التي تحفز العقل على التفكر وتوقظ القلب للإيمان. فآيات مثل: ﴿**وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ**﴾ [يس: 38]، وقوله تعالى: ﴿**وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ**﴾ [الحجر: 22]، وقوله سبحانه: ﴿**أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ**﴾ [النور: 40]، هي أمثلة قليلة من عشرات الآيات التي تدعو بوضوح إلى تأمل الظواهر الطبيعية كدليل على عظمة الخالق.

فالمشكلة إذن ليست في "وجود" هذه الإشارات، بل في "كيفية" قراءتها وفهمها في عصر العلم. هل نقرأها بعقلية تبحث عن التطابق الحرفي مع كل نظرية علمية، فنعرض القرآن لمخاطر التكلف والتقلب؟ أم نتجاهل ما يكشفه العلم من أسرار هذه الآيات، فنحرم أنفسنا من فهم أعمق وتدبر أوسع يزيدنا إيماناً؟ [29].

إن جوهر الإشكالية يكمن في غياب منهجية وسطية متفق عليها، تضبط العلاقة بين النص المعصوم والمعرفة البشرية. وهذا هو ما يجعل من الضروري الانتقال من مرحلة عرض الخلاف إلى مرحلة بناء "الضوابط المنهجية" التي تسمح لنا بالاستفادة من معطيات العلم اليقينية في زيادة فهمنا للقرآن، دون أن نخرق قواعد اللغة أو نتجاوز مقاصد الشريعة. هذه الضوابط هي الجسر الذي يمكن أن يربط بين غيرة المؤيدين الوقائية وحماسة الرافضين الدعوية، في إطار علمي منضبط.

ثانياً: ضوابط منهجية للتعامل المتوازن

بناءً على الموازنة النقدية السابقة، والتي أظهرت أن الإشكالية لا تكمن في النص القرآني، بل في منهجية القراءة، يصبح من الضروري بلورة إطار منهجي يضبط العلاقة بين القرآن والعلم. هذا الإطار ليس القصد منه غلق باب التدبر، بل ترشيده وتوجيهه ليؤتي ثماره الإيمانية والمعرفية دون الوقوع في شطط الغلو أو تقصير الجفاء. وفيما يلي مجموعة من الضوابط المنهجية المقترحة، التي تشكل بمجملها رؤية وسطية متوازنة:

1. الضابط الأول: أصالة الدلالة اللغوية والسياقية

هذا هو الضابط التأسيسي الذي لا يقوم أي فهم سليم للنص إلا به. ومقتضاه أن أي معنى مستنبط من الآية يجب أن يكون محتملاً في لغة العرب، وأن يكون سياق الآية (السباق واللحاق) هو الحاكم الأول على تحديد المعنى المراد. لا يجوز إطلاقاً تجاهل المعنى الظاهر المتبادر إلى الذهن، والقفز إلى معنى مجازي بعيد أو مصطلح علمي مستحدث، لمجرد وجود تشابه ظاهري. فقبل أن نسأل: "ماذا يقول العلم؟"، يجب أن نسأل: "ماذا تقول الآية في لغتها وسياقها؟". وقد أكد الأصوليون، كالإمام ابن تيمية، على أن الأصل في التفسير هو فهم القرآن بالقرآن، ثم بالسنة، ثم بأقوال الصحابة والتابعين، ثم بمقتضى لسان العرب [30]. فأي تفسير علمي يتجاوز هذه الأصول اللغوية والسياقية هو تفسير لا يقوم على أساس متين.

2. الضابط الثاني: التمييز القاطع بين الحقيقة العلمية والنظرية الظنية

لا يمكن وضع كل المنجزات العلمية في سلة واحدة؛ فبينها فروق جوهرية في درجة اليقين والثبات. وعليه، يجب على من يتعامل مع هذا الباب أن يفرق تفريقاً حاسماً بين:

1. **الحقيقة العلمية (Scientific Fact):** وهي المعلومة التي تم إثباتها بالتجربة والمشاهدة المتكررة، وحصل عليها إجماع شبه تام من أهل الاختصاص (مثل كروية الأرض، ودورانها حول محورها، ومكونات الماء). هذه الحقائق يمكن الاستئناس بها في فهم الآيات بحذر.
2. **النظرية العلمية (Scientific Theory):** وهي أفضل تفسير ممكن للبيانات المتوفرة حالياً (مثل نظرية الانفجار العظيم، أو نظرية التطور). ورغم قوتها، تظل قابلة للتعديل أو النقض في المستقبل. وربط القرآن بها ربطاً جازماً هو مخاطرة كبرى.
3. **الفرضية العلمية (Scientific Hypothesis):** وهي مجرد تخمين علمي لم يتم إثباته بعد. ولا يجوز شرعاً ولا عقلاً ربط القرآن بها إطلاقاً [31].

فالضابط هنا هو: كلما زادت درجة يقين المعلومة العلمية، قلّت درجة المحاذير في الإشارة إلى توافقها مع الآية، والعكس صحيح.

3. الضابط الثالث: التزام لغة الاحتمال وتجنب القطع والجزم

لما كان التفسير جهداً بشرياً يعتريه النقص، وكانت العلوم البشرية متغيرة بطبيعتها، فإن التواضع العلمي والأدب مع كتاب الله يقتضيان على المفسر أن يتجنب لغة القطع والجزم بشكل نهائي. فلا يصح أن يقول: "القرآن يثبت نظرية كذا"، أو "هذه الآية هي الدليل القاطع على الحقيقة الفلانية". بل عليه أن يستخدم لغة الاحتمال والترجيح التي تترك الباب مفتوحاً لفهم أعمق في المستقبل. ومن أمثلة الصياغات المقترحة:

- "لعل في هذه الآية إشارة لطيفة إلى ما كشفه العلم الحديث من..."
- "وهذا الفهم الذي يطرحه العلم الحديث لا يتعارض مع ظاهر الآية الكريمة..."
- "من وجوه التدبر في هذه الآية أن نتأملها في ضوء ما أصبح معلوماً اليوم من..."

إن هذا الأسلوب يحفظ للقرآن هيبته، ويحفظ للمفسر أمانته العلمية، ويجنبه الحرج إذا تغيرت المعطيات العلمية مستقبلاً [32].

4. الضابط الرابع: الخضوع لمقصد الهداية الأعلى

هذا هو الضابط المقاصدي الذي يوجه العملية التفسيرية برمتها. فكل تفسير علمي يجب أن يُسأل: هل يخدم مقصد القرآن الأسمى وهو هداية الناس إلى الله، أم أنه يمثل غاية في حد ذاته؟ إن الإشارة العلمية في القرآن ليست هدفاً، بل هي وسيلة لإيقاظ القلب وتحفيز العقل على الإيمان. فالتفسير العلمي المقبول هو الذي يزيد قارئ القرآن خشوعاً وتعظيماً لله، ويجعله يرى في الظاهرة الكونية آية تدل على الخالق. أما التفسير الذي يحوّل الآية إلى مجرد معلومة علمية باردة، ويشغل العقل بالتفاصيل التقنية عن العبرة الإيمانية، فهو تفسير قد انحرف عن مقصده [33]. فغاية الآيات هي أن تقودنا إلى خاتمتها: "أفلا تعقلون"، "أفلا تتفكرون"، "لآيات لقوم يؤمنون".

5. الضابط الخامس: القرآن محفِّزٌ للعلم لا بديلٌ عنه

يجب أن يُفهم القرآن على أنه الشرارة التي تطلق البحث العلمي، وليس الكتاب الذي يغني عن هذا البحث. فالآيات الكونية هي بمثابة دعوة إلهية مفتوحة للإنسان لكي يستخدم عقله وحواسه في استكشاف الكون واكتشاف سنن الله فيه. هي تفتح الآفاق ولا تغلقها، وتطرح الأسئلة ولا تقدم دائماً إجابات جاهزة. إن قراءة الآية ﴿**أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ**﴾ يجب أن تدفع عالم الأحياء لدراسة فسيولوجيا الإبل، لا أن تجعله يكتفي بالآية ويظن أنه عرف كل شيء. فالقرآن لا يقدم لنا "نتائج" العلم، بل يمنحنا "الدافع" و"البوصلة الأخلاقية" التي توجه مسيرته. وبهذا المعنى، يصبح القرآن قائداً للعلم ومحفزاً له، لا بديلاً عنه أو كتاباً دراسياً في علومه [34].

الخاتمة

بعد هذه الرحلة البحثية التي تنقلت بين آراء المؤيدين للتفسير العلمي وحججهم، وآراء الناقدين له واعتراضاتهم، وصولاً إلى محاولة بناء إطار منهجي متوازن، نصل إلى ختام هذا البحث الذي سعى إلى إلقاء الضوء على قضية فكرية ومنهجية بالغة الأهمية في ساحة الدراسات القرآنية المعاصرة. وقد تجلت من خلال فصول البحث المختلفة أبعاد الإشكالية وحدودها، مما مكننا من الخروج بجملة من النتائج والتوصيات التي نوجزها فيما يلي.

أولاً: نتائج البحث

لقد توصلت الدراسة إلى مجموعة من النتائج المترابطة، والتي تشكل بمجملها الإجابة عن أسئلة البحث الرئيسة، ويمكن عرضها في النقاط التالية:

1. إن اتجاه "التفسير العلمي" هو ظاهرة حديثة نسبياً، ارتبطت بشكل وثيق بسياق اللقاء الحضاري بين العالم الإسلامي والغرب في العصر الحديث. وقد نشأ مدفوعاً بنية حسنة ورغبة صادقة في الدفاع عن القرآن الكريم وإظهار عظمته وصلاحيته لكل زمان ومكان، وذلك باستخدام لغة العلم التي أصبحت لغة العصر المهيمنة.
2. يقوم منطق المؤيدين على أسس رئيسية أبرزها: فهمهم الشامل لآيات القرآن التي تحث على النظر في الكون، واعتبارهم أن التوافق بين القرآن والعلم هو أداة دعوية فعالة في تقوية إيمان المسلمين وإقناع غيرهم، ورؤيتهم أن هذا التوافق هو برهان قاطع على المصدر الإلهي للقرآن كمعجزة خالدة.
3. في المقابل، تقوم اعتراضات الفريق الناقد على أسس منهجية متينة، أهمها: التحذير من خطورة "التكلف" وتحميل النص معانٍ لا يحتملها لغةً وسياقاً، والتنبيه إلى إشكالية ربط النص الإلهي المطلق والثابت بالنظرية العلمية البشرية النسبية والمتغيرة، والتأكيد على أن هذا الاتجاه قد يخالف المقصد الأعلى للقرآن وهو "الهداية" ويحوله إلى كتاب علوم.
4. كشف البحث أن جوهر الإشكالية ليس في وجود إشارات كونية في القرآن الكريم، فهذا أمر ثابت وحقيقة لا ينكرها إلا مكابر، بل إن الإشكالية الحقيقية تكمن في "غياب منهجية منضبطة" للتعامل مع هذه الإشارات، مما أدى إلى حالة من الاستقطاب بين طرفي الإفراط والتفريط.
5. **إن الموقف العلمي والمنهجي الأكثر توازناً وأماناً** هو الذي يسلك طريقاً وسطاً؛ فهو **يعظّم النص القرآني** أجلَّ تعظيم، وذلك بصيانته عن التأويلات المتعسفة ورفض إخضاعه للنظريات البشرية المتقلبة **(دون تحميله ما لا يحتمل)**. وفي الوقت نفسه، لا يهمل هذا الموقف كنوز الآيات الكونية، بل **يرى في إشاراتها المبهرة دافعاً مزدوجاً للعلم والإيمان معاً**؛ فهي تحفز العقل على البحث والاستكشاف العلمي لآيات الله في الآفاق والأنفس، وتحفز القلب على زيادة الإيمان والخشوع والتعظيم للخالق المبدع، فتتحقق بذلك مقاصد القرآن الكبرى.

ثانياً: التوصيات

بناءً على النتائج التي تم التوصل إليها، فإن البحث يتقدم بالتوصيات العملية التالية:

1. يوصي البحث بضرورة تبني "الضوابط المنهجية الخمسة" المقترحة في هذه الدراسة، من قبل المؤسسات العلمية والدعوية والهيئات المعنية بالقرآن وعلومه

(مثل كليات الدراسات الإسلامية، ومراكز البحوث القرآنية، والهيئات العالمية للإعجاز العلمي). ويجب أن تصبح هذه الضوابط معياراً أساسياً لتقييم وقبول نشر الأبحاث والكتب والمقالات والبرامج الإعلامية التي تتناول موضوع الإعجاز العلمي، وذلك لترشيد هذا الخطاب وضبطه.

2. دعوة الباحثين في الدراسات القرآنية إلى تجديد مجالات البحث في هذا الميدان؛ وذلك بالانتقال من مجرد محاولة "صيد المتطابقات" بين القرآن والعلم، إلى دراسات أكثر عمقاً، مثل: "تاريخ التفسير العلمي وتطوره الاجتماعي"، و"الأبعاد النفسية والتربوية للآيات الكونية"، و"المقاصد البلاغية والجمالية في الخطاب الكوني القرآني".

3. توجيه الدعاة والمربين والمعلمين إلى أهمية التركيز على المقصد الأصلي للآيات الكونية، وهو غرس الإيمان وتعظيم الخالق في النفوس، واستخدام هذه الآيات لإثارة التفكر والدهشة التي تقود إلى الخشوع، بدلاً من التركيز على تقديمها كبراهين علمية جافة قد تكون معقدة أو عرضة للنقض، مما قد يؤدي إلى نتائج عكسية على المدى الطويل.

4. اقتراح إقامة مشروع علمي كبير تشرف عليه مؤسسة إسلامية عالمية، يهدف إلى إعداد "ميثاق منهجي وأخلاقي للتعامل مع الإعجاز العلمي في القرآن والسنة"، يشارك في صياغته نخبة من كبار العلماء الراسخين في التفسير وعلوم اللغة، إلى جانب خبراء في فلسفة العلوم وتاريخه، ليكون مرجعاً موثوقاً للأمة في هذا الباب الدقيق.

المصادر

القرآن الكريم.

[1] فهد بن عبد الرحمن الرومي، *اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر*، (الرياض: إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الثانية، 1424هـ/2003م)، ج. 2، ص. 665.

[2] محمد حسين الذهبي، *التفسير والمفسرون*، (القاهرة: مكتبة وهبة، الطبعة السابعة، 1421هـ/2000م)، ج. 2، ص. 497.

[3] مساعد بن سليمان الطيار، *فصول في أصول التفسير*، (الرياض: دار ابن الجوزي، الطبعة الثانية، 1423هـ)، ص. 55.

[4] بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (بيروت: دار المعرفة، 1972م)، ج. 2، ص. 147.

[5] أمينة محمد نصير الجندان، التفسير العلمي للقرآن الكريم بين النظريات والتطبيق، (بيروت: دار الشروق، 1991م)، ص. 55.

[6] انظر على سبيل المثال: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، (القاهرة: دار هجر، 2001م)، ج. 14، ص. 345.

[7] طنطاوي جوهري، الجواهر في تفسير القرآن الكريم، (القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، 1931م)، ج. 1، ص. 4.

[8] زغلول النجار، قضية الإعجاز العلمي للقرآن الكريم وضوابط التعامل معها، (القاهرة: دار نهضة مصر، 2009م)، ص. 67-68.

[9] عبد المجيد الزنداني، كتاب التوحيد، (صنعاء: دار الإيمان، 1994م)، ج. 1، ص. 41.

[10] موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ترجمة: حسن خالد، (بيروت: المكتب الإسلامي، الطبعة الثامنة عشرة، 2003م)، ص. 145.

[11]Keith L. Moore, The Developing Human: Clinically Oriented Embryology, 3rd Edition with Islamic Additions, (Philadelphia: W.B. Saunders, 1983), pp. viii, .38

[12] محمد دودح، كنوز الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، (القاهرة: دار المعارف، 2005م)، ص. 112.

[13] عبد المجيد الزنداني، إنه الحق (فيلم وثائقي وعلمي)، (جدة: الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، 1990م)، مقطع مراحل تطور الجنين.

[14] حسان شمسي باشا، ومضات من الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، (جدة: دار القلم، الطبعة الثالثة، 2010م)، ص. 95.

[15]Keith L. Moore, T.V.N. Persaud, and Mustafa A. Ahmed, "The Qur'an and Modern Embryology: A Review and an Update", Journal of the Islamic Medical Association of North America (JIMA), Vol. 37, No. 2, 2005, p. .77

[16] زغلول النجار، من آيات الإعجاز العلمي: الإنسان، (بيروت: دار المعرفة، 2004م)، ص. 155-157.

[17] المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية (مصر)، موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، (القاهرة: وزارة الأوقاف، 2006م)، ج. 1، ص. 244.

[18] عبد الرحمن حبنكة الميداني، قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل، (دمشق: دار القلم، الطبعة الرابعة، 2005م)، ص. 311.

[19] أمين الخولي، مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب، (القاهرة: دار المعرفة، 1961م)، ص. 234.

[20] مساعد بن سليمان الطيار، مفهوم التفسير بين المتقدمين والمعاصرين، (الرياض: دار ابن الجوزي، 2008م)، ص. 195.

[21] يوسف القرضاوي، كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟، (القاهرة: دار الشروق، الطبعة الثالثة، 2002م)، ص. 227.

[22] أبو إسحاق الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق: مشهور بن حسن آل سلمان، (الخبر: دار ابن عفان، 1997م)، ج. 2، ص. 65-67. (بتصرف وتطبيق لمبادئه).

[23] محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، (القاهرة: مكتبة وهبة، الطبعة السابعة، 2000م)، ج. 2، ص. 497.

[24] ابن منظور، لسان العرب، (بيروت: دار صادر، د.ت)، مادة (علق)، ج. 10، ص. 257.

[25] خالد السبت، القواعد والأصول وتطبيقات على التفسير العلمي والإعجاز، (موقع الدكتور خالد السبت الرسمي، مقال منشور)، تم الاطلاع عليه بتاريخ 14 يوليو 2025. (بتصرف وتطبيق لمنهجه).

[26] شكري عياد، دائرة الإبداع: مقدمة في أصول النقد، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1988م)، ص. 155-159. (يطبق فيه منهجه النقدي على فكرة الإسقاط).

[27] مساعد بن سليمان الطيار، التفسير اللغوي للقرآن الكريم، (الرياض: دار ابن الجوزي، 2008م)، ص. 320-322. (بتصرف واقتباس للمعنى من تحليله لآيات الخلق).

[28] طه جابر العلواني، إشكالية التعامل مع النص القرآني، ضمن سلسلة "قضايا الفكر الإسلامي"، (فيرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 2001م)، ص. 45-48 (بتصرف وتطبيق لتحليله).

[29] محمد عمارة، التفسير الماركسي للإسلام، (بيروت: دار الوحدة، 1980م)، ص. 115 (يناقش فيه إشكالية الإسقاط الأيديولوجي على النص، ويمكن تطبيق نفس المبدأ على الإسقاط العلمي).

[30] تقي الدين ابن تيمية، مقدمة في أصول التفسير، تحقيق: عدنان زرزور، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1971م)، ص. 93.

[31] يوسف القرضاوي، كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟، (القاهرة: دار الشروق، الطبعة الثالثة، 2002م)، ص. 228.

[32] بدر الدين بن جماعة الكناني، تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1988م)، ص. 75-77 (بتطبيق مبادئ أدب العالم على هذا الباب).

[33] أبو إسحاق الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق: مشهور بن حسن آل سلمان، (الخبر: دار ابن عفان، 1997م)، ج. 2، ص. 70 (بتطبيق مبدأ "خدمة المقاصد" على التفسير).

[34] مهدي گلشني، القرآن والعلم، ترجمة: خالد الألوسي، (طهران: منظمة الإعلام الإسلامي، 1997م)، ص. 112-115.